مقدمة فكرية
لحركة المشروطة

✍ الدكتور علي اكبر ولايتي
تعريب: د. آذرشب

كان الغزو الصليبي على مر عصور التاريخ الاسلامي عاملا من عوامل تماسك المسلمين ووحدة صفهم واجتماع كلمتهم.. ولكن المرحلة الاخيرة من هذاالغزو استطاعت أن تمزق وتشتت.. لأنها كانت وفق خطة مرسومة دقيقة.

والخطة تقضي تجنيد أفراد من داخل العالم الاسلامي ينفذون خطة المستعمرين عن قناعة أو عن تطميع. ولذلك ظهر منذ بداية الغارة الاخيرة في جميع أرجاء العالم الاسلامي فئة اطلقت على نفسها اسماء مختلفة: منوري الفكر.. المثقفين.. التقدميين و.. ويجمعهاالتنكر لجذور الامة الفكرية والعقائدية والروحية. والهزيمة النفسية أمام الغرب.

وهذه الفئة استطاعت أن تقدم للغزاة خدمة لم تقدمها لهم جيوشهم المجهزة ولا أسلحتهم الفتاكة المتطورة. لانها توجّهت الى إضعاف عامل بقاء الامة وقوامها وتماسكها.

ولكل بلد في العالم الاسلامي تجربته المرة في هذاالمجال. وهنا نحن نقدم تجربة ايران في دراسة فريدة من نوعها، عسى أن تكون عاملا على توعية الامة على ما يحيط بها من محاولات التمزيق والسيطرة.

المقدمة

اتجهت دعـوة الاديـان الالهية جميعـا الى دفع المسيـرة البشرية على طريق الكـامل المطلق سبحانـه، لتحقق بمقـدار مـا أوتيت من قـوة وقدرة وتجربة كما لها النسبي في مجـال العلم والحكمة والعـدل والابـداع والجمـال. وكانت الـرسـالة الاسـلامية هي خاتمة الـرسـالات السمـاوية، لمـا تحملـه من مقومات الدفع الهائلة للبشرية حتى يرث الله الارض ومن عليها.

والـواقع أن الاسـلام نهض بعملية تحريـر كبـرى للبشرية حين وضع عنهـا إصـرهـا وما كان عليها من أغلال العبوديات الكاذبة والاوهام الفارغة والعصبيات الضيقة، وجعلهـا تنطلق بسـرعة فـائقة في ميـادين الكمال البشري. وهذه الانطلاقة آتت أكلهـا على السـاحة التـاريخية وامتـد عطـاؤهـا ليشمل كل أصقاع المعمورة بصورة مباشرة وغير مباشرة، وليرسم للانسانية طريق عزتها وكرامتها.

ورغم كل ما واجه المسيرة من عقبات الذاتيات المستفحلة، والآلهة المزيفة المتعملقة، والجبابـرة الطغـاة، والمـوجـات الهمجية، وعمليات الابادة الحضارية، ومظـاهـر التزييف والتخديـر والتحميق والتحمير باسم الدين، رغم كل ذلك ظلت شعلة الـدفع الكبـرى متوهجة تثير الاشواق البشرية في المجتمعات الاسلامية نحو الفكر والمعرفة والعدل ومقارعة قوى الظلام..

وهـذه العلـوم الـواسعة المعمقة في شتى مجـالات المعـرفة، وهذا النشاط الـواسع في حقل التـدريس والتـأليف على مـرّ العصور، وهذه الثورات المتواصلة رغم كل مـا لاقتـه من بطش وتنكيل إنما هي تعبير عملي عن شحنة الدفع التكاملي التي أودعها الاسلام في نفوس أبنائه.

غيـر أن العـالم الاسلامي واجه منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادي خطة لاقتـلاع هـذه الـروح الاسـلامية من النفـوس، ولخلق هزيمة نفسية أمـام الاعداء، ولتربية جيل يتطـوع لتقديم كل مقدرات بلاده ضحية على معبد الطاغوت الغربي. ونشـأ على أثـر ذلك جيل مايسمى بـالمثقفين أو منـوري الفكـر ليتولى «مسؤولية» تعميق الهزيمة وبيع المقدرات والاستهانة بكل ما هو أصيل في هذه الامة.

وفي هـــذه السطـور نتحـدث عن تجربة ايـران في اطـار خطة المسخ هـذه لنضيفهـا الى رصيـد تجارب العالم الاسلامي، عسى أن يكون هذا الرصيد لنا عونا في صحوتنا الاسلامية المعاصرة.

بدايات الخطة

في سنة ١٦٠٠ ميـــلادية (١٠٢٠ هجـرية) وقّعت الملكة «اليـزابيث الاولى» على وثيقة حصـر التجارة الشرقية باسم شركة الهند الشرقية تمهيدا لغزو الهند. ووضعت وزارة المستعمـرات البريطانية خطة السيطرة على ايران، واقترن غزو الهند بالهجوم على ايران، واقتضت الخطة بالنسبة لايران تنفيذ مايلي:

١ - أن تبـادر وزارة الخـارجية البريطانية الى تـأسيس سفـارة ومـؤسسـات بريطانية في ايران.

٢ - توجيـه التعليمـات الى الشـركـات البريطانية لتأسيس فروع تجارية في ايـران وللعمل على مـدّ الطـرق وانشـاء البنـوك والحصول على امتيازات استثمار المناجم.

٣ - توجيه التعليمات الى المستشرقين للتوجه الى ايران ودراسة آداب هذا البلد وتاريخه وفنونه.

٤ - اصدار التعليمات الى علماء الآثار لدراسة الآثار التاريخية في هذا البلد،

وكانت هذه الدراسة مقرونة طبعا بنهب منظّم دقيق لكثير من كنوز ايران الاثرية.

٥ ـ أن تنشط المحافل الماسونية البريطانية الفرنسية في ارسال أفرادها الى ايران لتشكيل تنظيمات ماسونية فيها، وتشجيع الايرانيين الوافدين على بريطانيا للانتماء الى الماسونية.

٦ ـ أن تنشط الارساليات البريطانية الى ايران في الاستفادة الى أقصى حد مما في البلد من فساد و ارتشاء وسرقة، وأن لايعملوا أبدا على معالجتها، بل أن يسعوا في إشاعتها.

٧ ـ منح الديبلوماسيين البريطانيين المقيمين في ايران صلاحيات لعقد معاهدات تتوجه الى تقسيم البلاد، واضعاف الحكومة المركزية، وصد أية عملية تنمية فيها.

وكانت كل بنود هذه الخطة تتجه الى تمهيد السبل أمام الغزو البريطاني لايران.(١)

ولو أمعنا النظر في جذور كثير من الحوادث المفتعلة خلال القرنين الاخيرين في ايران لوجدناها تعود الى تلك الخطة الموضوعة.

لقد بدأ تنفيذ هذه الخطة حين كان أبناء هذا البلد يغطّون في سبات عميق، لايدرون ما يجري حولهم، ولايفكرون الاّ في معاناتهم اليومية من الجوع والمرض وأنواع الاوبئة الوافدة من شبه القارة الهندية. وعلى حين غرّة اقترنت أمراضهم وأوبئتهم بأمراض وأوبئة «سياسية» غير مشهودة، ظهرت آثارها فيهم بالتدريج، وظهر الضعف والهزال في جسد هذه الامة العظيمة المقاومة الصامدة على مرّ التاريخ، وأنزلوا كل يوم جرحا عميقا في شلو من أشلائها، وحالوا دون تطبيب

(١) اسماعيل رائين، فراموشخانه و فراماسونرى در ايران (فارسي)، طهران، منشورات امير كبير.

هـذا الجـرح ومعـالجتـه، ولما آل الامر الى عفونته، تقدموا متلبسين بلباس جرّاح عطوف الى فصل هذا الشلو عن الجسد. واستفحل الفساد بألوانه حتى خيم اليأس على الناس، وأيقنوا أن لاقدرة لهم على العلاج.

في مثل هـذه الظـروف الحـاكمة تحرك الخناسون ليكتبوا لآلام هذه الامة المحتضـرة وصفة دواء ربّمـا أزالت بعض العـوارض وسكّنت بعض الآلام، لكنهـا كانت تؤدي فيما تؤدي الى الغفلة عن جذور المرض وعلاجه.

يبدو أن أول مبعوث رسمي بريطاني قدم الى إيران في العصر الصفوي هو «انطوني جنكنسن»، فقـد بعثتـه ملكة بريطانيـا محمّـلا برسـالة الى الشاة طهماسب تخاطبـه فيها بما يتناسب مع مزاج الشاه الصفوي من ألقاب: شاهنشاه ايران وشعب «مـاد» و«پـارت» و«گـرگـان» و«كرمـان» و«ماركو» (مرو) وقبائل ضفتي شط دجلة وسائـر القاطنين بين بحر الخزر والخليج الفارسي.. الصوفي الكبير.. الحاكم العريق والمقتـدر.. ثم تقـول له: لقد بعثنا اليكم خادمنا الوفي انطوني جنكنسن ليتجول في بقاع مملكتكم ولاقامة علاقات تجارية مع رعاياكم..

يقـول اللـورد كـورزن (Curzon) في كتـابـه ايـران ومسـألة ايـران (Persia and Persian Question): «حين قـدم جنكنسن قـزوين وقابل الشاه وسلمه رسـالة ملكة بريطانيـا قـال له الشاه: آه، أيها الكفار، نحن لسنا بحاجة الى صداقتكم، وأمـره بالعـودة من حيث أتى، ثم أمـر الشـاه أن تعفّر آثار أقدام هؤلاء البريطانيين بالتراب لانهم نجسّوا الارض التي وطأوها».

خـرج هـذا المبعوث البريطاني من ايران خائبا، واتجه الى موسكو، وقضى الشتـاء هنـاك، وفي العـام التالي عاود الكرة واصطحب معه شخصين هما «توماس الكـوك» و «ريتشارد چني» ، وتوجه نحو ايران، لكنه وجد من «عبدالله خان» والي شيروان صدودا وإعراضا، لان هذا الوالي كان ساخطا بسبب مقتل أحد المسلمين

على يد أحد أتباع روسيا! فعاد الثلاثة أدراجهم يجرون أذيال الخيبة.

ويظهر أن محاولات البريطانيين وخططهم للنفوذ في بلاط الشاه تواصلت بكثافة، إذ نرى بعد عامين يدخل بلاط الشاه طهماسب وفد تجاري بريطاني مبعوث من شركة الهند الشرقية، وينجح الوفد في كسب موافقة الشاه على إعفاء الشركة من الحقوق الجمركية والترانزيت، وعلى إجازة الشركة أن تسافر الى كل أجزاء ايران وتتاجر فيها.(١)

هذا أول موضع قدم للبريطانيين في ايران، وتبعه نشاط دائب أدى الى إقامة علاقات ودية!! بين البلدين.

يحسن بنا أن نستقرىء في هذا المجال بعض النصوص في كتاب تاريخ العلاقات الايرانية الاوروبية:

جورج منوارينغ (George Manwaring) من مرافقي «السير انطوني شرلي» يتحدث عن وصول الوفد البريطاني قزوين والضيافة التي أعدها له الشاه عباس، يقول:

«في قصر فخم جدا ورائع جدا، علقت على جدرانه المنسوجات المذهبةالثمينة، وفرشت على أرضه سجاجيد جميلة، وضعت على المائدة ألوان الاطعمة، وأذكر منها فقط أنواعا من الرز، كل نوع بلون معين. وفي المجلس عدد من مطربي البلاط يشتغلون بالعزف، وفي داخل البيت مجموعة خاصة من العازفين. وإضافة الى ذلك ثمة عشر نساء جميلات فاتنات يلبسن ثمين الثياب كن يمارسن خلال مدة الضيافة الرقص والدبك على الطريقة الايرانية».

..«السير روبرت شرلي بعد مغادرة أخيه تولّى منصب قيادة عسكرية، ونال

---

(١) نصرالله فلسفي، تاريخ روابط ايران واروپا (فارسي)/١٨٨.

الرتب والنيـاشين الراقية خلال حروب شاه إيران مع السلطان العثماني، وأبدى من الحـزم وفنون الحرب ما جعل الايرانيين يهدونه التاج تقديرا لفتوحاته. حين واجه العـدو أخـذ بيـده رمحا وحمل على الاتراك حملة أثارت الحيرة والدهشة، وأدت الى هزيمة الاتراك».

«صمـــوئيل پرچـــاس» (Samuel Purchas) القسيس البـريطـاني الـذي زار المشرق خلال السنوات بين ١٦١٣ و ١٦٢٦ يكتب في رحلته:

«الحكـومة العثمانية التي بثت الخـوف والـرعب في العالم المسيحي، هي الآن مذعـورة من فـرد بريطاني هـو السير انطوني شرلي، وقلقة على مصيرها. لقد تعلم الايرانيون فنون الحرب من شرلي...».(١)

في هـــذه النصـــوص التـاريخية نكـات على غاية الاهمية تستطيع أن تضع النقاط على كثير من الحروف. يتبين منها:

أولا: أن السيـــاسة الاستعمـــارية تقضي أن المستعمرين حين يطـردون من البـاب يحـاولـون أن يتسوّروا المحراب. ويواصلون المحاولات تلو المحاولات بشتى الاساليب حتى يحققوا ما يصبون اليه من أهداف.

ثانيـا: إن الوضع الداخلي للبلاط كما ورد في النص يميط اللثام عن حقيقة الحكم الصفـوي. فهـو - رغم اشتهـاره بالدفاع عن التشيع وإفساح المجال لمراقبة وإشراف علماء الدين - كان غارقا فيما يغرق فيه الطواغيت والمتفرعنون.

ثالثا: مدى ما كانت تحمله الصليبية من حقد على الدولة العثمانية، وسبب اهتمام انطوني شرلي بتدريب الايرانيين عسكريا، وتحويلهم الى خنجر يطعن ظهر العثمانيين.

---

(١) نفس المصدر / ١٢٢.

رابعا: فتح الطريق أمام الغزو الثقافي والمسخ الثقافي..

كل الجهود انصبت على طريق نهب ثروات الشعوب وعلى إزالة كل مانع في هذا الطريق. ولم يكن ثمة عقبة أمام نفوذ الاجانب في بلدان العالم الاسلامي أكبر من الاسلام بمعناه الشامل. وكان الغرب الصليبي على علم كامل بخطر الاسلام، ولذلك لانشك في وجود الايدي الصليبية وراء هجوم المغول على العالم الاسلامي، ووراء الصراع الدموي بين العثمانيين والصفويين.

كانت الايدي الغربية الآثمة تسعّر نار الخلافات والحروب بين الاخوة المسلمين الايرانيين والاتراك لتضعفهما معا ولتوقف الايرانيين عند حدود مصالح امبراطورية الهند الشرقية وتوقف الاتراك عند حدود اوروبا المركزية، ثم لتأتي على سائر أجزاء العالم الاسلامي لتأكلها واحدة بعد أخرى بعد أن أكلت الثور الابيض.

واجتمعت العوامل لتنخر في جسد الحكومة الايرانية وتؤدي بها الى منتهى الضعف والهزال: تدهور الحكومة الصفوية.. وهجوم الافغان..وقيام شركة الهند الشرقية.. وتنفيذ الدسائس في الحدود الجنوبية والجنوبية الشرقية.. وتزلزل الحكومة الزندية.. وفشل «لطف علي خان الزندي» في الاحتفاظ بالسلطة التي وطدها له أبوه.. والمجازر الدموية الظالمة التي ارتكبها «آقا محمدخان القاجاري» .. وسياسة الدهاء الاجنبية وخاصة البريطانية.. وضعف «فتح علي شاه القاجاري»..

ولسوء الحظ فان هذا الضعف والهزال في جسد الحكومة الايرانية صادف ذروة اقتدار «نابليون» ملك فرانسه الذي استشعر حلول روح «الاسكندر المقدوني» فيه، وطمح الى أن يسخّر الشرق والغرب تحت قبضته.. واستهدف الى أن يتعاون مع «بولس الاول» قيصر روسيا، ومع الجيش الايراني ليخرج الهند من قبضة البريطانيين. من هنا دخل البريطانيون بكل قواهم ساحة المعركة ليحولوا دون

تنفيذ خطة نابليون، واتجهت جهودهم بالدرجة الاولى صوب ايران التي كانت تعتبر يومئذ بوابة الهند.

«السير هاردفورد جونز» و «السير جان ملكم» وهما من كبار أساتذة الماسونية يدخلون ايران، ويذكر جونز في مذكراته: «... لقد أدخلتُ في الماسونية ما استطعت من رجال ايران ووفّرت الاجواء لقدوم السير جان ملكم».[1]

فتح على شاه الذي كان يعاني من عجز في الميزانية ومن النفقات الباهضة لبلاطه وبيت حريمه اضطر الى تأمين احتياجاته عن طريق أخذ الرشوة تحت عناوين مختلفة من الاوربيين.

حاشية الشاه اقتدوا بالشاه في أخذ مثل هذه الرشاوي. على سبيل المثال وزير خارجيته «ميرزا ابو الحسن خان الشيرازي»، الذي شغل قبل ذلك منصب سفير ايران في بريطانيا، كان يتقاضى راتبا شهريا بمبلغ الف روبية من شركة الهند الشرقية، منذ سنة ١٨١٠ حتى وفاته سنة١٨٤٦، ومن الطريف أنه تقدم سنة ١٨٤٣ بطلب اعطاء نصف هذا المبلغ لولده بعد وفاته![2] هذا الطلب رفضه «اللورد بالمرستون» وزير خارجية بريطانيا آنئذ. وسنعود الى الحديث عن ميرزا ابو الحسن هذا في مناسبة أخرى.

«جان ويليام كي» البريطاني يتحدث في كتابه: «تاريخ الحروب الافغانية» عن مهمة السيرجان ملكم والسير هاردفورد جونز، وتوزيعهما الرشاوي على الشاه وحاشيته ويقول:

«كان ملكم يحمل مهمة الدخول في محادثات مع ايران عن أحد طريقين: **الاول:** إعطاء ٣٠٠–٤٠٠ الف روبية على شكل قرض لمدة ثلاث سنوات الى

---

(١) مذكرات جونز، نقلا عن رائين، مصدر مذكور ١/١٦.

(٢) وثائق وزارة الخارجية البريطانية ١٤٢/٦٠، نقلا عن رائين، مصدر مذكور ١/٣٣٤.

الحكـومة الايـرانية. والثاني: أن يكسب الشـاه وحاشيته بدفع الرشاوي لهم. وملكم اختـار الطريق الثاني ونـال مبتغاه.[1] كانت كل المشاكل تحل عن طريق الجنيهات والذهب البريطاني بشكل سحري.

... على سبيل المثـال لـو أريـد إخراج أحد أتباع فرنسا من إيران، فان قيمة إخـراجـه يُسـاوَم عليهـا كما يساوم على ثمن الحصان. ايران بلد لايمكن القيام فيه بأدنى خطوة دون إنفاق مبالغ ضخمة».[2]

خطط بريطانيـا المـاهـرة في زمن حكومة نابليون بشأن إيران تعد من أتقن الخطط وأبرعها في تاريخ الدبلوماسية العالمية. فقد نجحت هذه الخطط في إحباط محـاولات فرنسـا وروسية للاغـارة على الهنـد، بل ونجحت أيضا في فصل أجزاء مهمة عن إيـران وشـراء ذمم عـدد من الـرجـال وتحويل الحكـومة الى كائن هزيل لايقوى على شيء.

تزايد النفوذ الماسوني في جهاز الحكم القاجاري

من أجل أن نلقي الضـوء على الاوضـاع في العصـر القـاجـاري ننقل أولا بعض النصـوص عن كتـاب «نـاسخ التـواريخ» الـذي يعتبـر أفضل مصدر عن هذا العصر:

«حـيـن تسـلـط الـروس على أرض المسلمين اعتـدوا على الأعـراض والامـوال. بلغ خبـر ذلك «السيـد محمـد اصفهاني» عن طريق بعض خـدم نـائب السلطنة ممن كـان مستـاء من مصـالحة الروس. وكتب السيد الاصفهاني الذي كان يقطن العتبات المقدسة الى جهاز بلاط الشاه أن قد حان حين الجهاد مع الروس فما

---

(١) ابراهيم تيموري، عصر بى خبرى (فارسي) نقلا عن: رائين مصدر مذكور ١/١٨.

(٢) جرنت واتسن، تاريخ ايران في العصر القاجاري/١٩، نقلا عن رائين ١/١٨.

هـو رأي الشـاه في ذلك؟ فقـال الشاه: نحن كنا دائما في فكر الجهاد ونذرنا أنفسنا لتـرويج الدين والشريعة. ومـا إن سمع السيد الاصفهاني برأي الشاه حتى توجه الى دار الخـلافة فـوصل طهـران في العشـر الاواخـر من شهر شوال المكرم، واستقبله جميع الامراء والعلماء..».

«... من جانب آخـر أمـر الشـاه «الميرزا ابوالقاسم مستوفي الاصفهاني» أن يستضيف «جان مكدانولد كيز» البريطاني الذي أرسلته حكومة الشركة الهندية ليقيم في ايران وكيلا لدولة بريطانيا خلفا لـ«هنري دلك» ...».

«.. وأرسل «نيقـولا» امبراطورُ الروس «كينياز بخشكوف» ليكون سفيرا في ايـران... واستقبلـه الشـاه في السـادس عشـر من ذي القعـدة، فتسلم الشـاه رسـالة الامبـراطـور وعـرشـا من البلّـور مهدى اليه. وهذا العرش كان قد أعده لشاه إيران «الكسنـدر بـادلويج»، ولكنـه لم يبق في الحكم، وعنـدمـا جلس أخوه نيقولا على عـرش السلطنة أرسل ذلك العـرش. وهـو بطـول ثلاثة أذرع وعـرض ذراعين من البلور الابيض المرصع، على كل جانب منه ثلاث مشارب يفور منها الماء، وخلف المقعد تمثال قرص الشمس من البلور الصافي..».

«... يـوم الجمعة السابع عشـر من ذي القعـدة، جنـاب السيـد محمد والملا محمـد جعفـر الاستـرآبـادي ، والسيـد نصـر الله الاسترآبادي والسيد محمد تقي القـزويني والسيد عزيز الله طالشي وعلماء وفضلاء آخرون وردوا معسكر الجيش، واستقبلهم الامـراء والحكـام. ويوم السبت وصل الملا أحمد نراقي الكاشاني وهو ممن بـزّ اقرانـه من علماء الاثنى عشرية يرافقه الملا عبد الوهاب القزويني وجماعة من العلماء والحاج ملا محمد نجل الحاج ملا أحمد الذي كان هو أيضا من أفاضل المجتهدين. وسارع كل الامراء والحكام والاعيان لاستقباله، واصطحبوه الى محل إقـامتـه بالتكبيـر والتهليل. وهـؤلاء المجتهدون اتفقوا على اصدار فتوى الجهاد،

وأنّ كل من يتهاون في جهاد الروس فقد عصى الله وتابع الشيطان...».

«... وبين هؤلاء كان معتمدالدولة الميرزا عبدالوهاب ووزير الخارجية الميرزا ابو الحسن ممن لايرتضي محاربة روسيا. أرسل المجتهدون اليهما خطابا شديد اللهجة وقالوا لهما: إنّ في عقيدتكم ودينكم لَفتورا، والاّ فِلمَ تستكرهون جهاد الكفار.. فسكت هذان عن المعارضة...».

«سفير الروس يأس من الحديث مع جهاز الدولة وأراد أن يقابل العلماء عله يصرفهم عن موقفهم، ويقنعهم بأنه يتعهد أن يبعد الروس عن حدود ايران. فأجابه المجتهدون بأن الحديث مع الكفار بلين واستسلام ذنب كبير في شريعتنا، وأننا نعتقد بوجوب جهاد الروس حتى ولو ابتعدوا عن حدودنا. وفي النهاية استدعى الشاه سفيرَ روسيا وقال له: الامر الآن أصبح يقوم على أساس مباني الشريعة، ونحن فضلنا دائما قوامَ الملّة على مصلحة الدولة. وأجازه أن ينصرف، وأعطاه الف تومان ذهبا وأشياء أخرى...»[1]

ولنتعرف على ميرزا ابو الحسن خان المعروف بـ «ايلچي» (مبعوث الحكومة) الذي أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية:

«... في سنة ١٢١٥هـ حين أمر فتح علي شاه بتنحية الحاج ابراهيم كلانتر عن رآسة الوزارة واعتقاله، وأصبح أعضاء أسرة الحاج ابراهيم بين أسير أو قتيل أو مسمل العيون أو مشرد، كان ميرزا ابوالحسن خان آنئذ حاكم شوشتر، فجيء به أسيرا الى طهران، وهمّ الشاه أن يقتله لولا وساطة بعض أعضاء البلاط، فعفي عنه وأُجبر على الاقامة في شيراز. لكن الميرزا هذا استطاع بمساعدة الانجليز أن يذهب الى الهند عن طريق البصرة، وأقام في بمبي. وفي سنة ١٢٢٣، توسط الصدر

---

(١) ميرزا محمد تقي سپهر (لسان الممالك)، ناسخ التواريخ، طبعة حجرية، ج١، من «تاريخ القاجارية» ذيل «وقائع سنة ١٢٤١هـ وابتداء نقض الروس لعهدهم مع ايران».

الاصفهاني فأعاده الى طهران. وبعد عامين ذهب الى لندن بعنوان مبعوث الحكومة يرافقه جيمز موريه سكرتير السفارة البريطانية.

«السير جور اوزلي بارت "Sir Gore Ouzely Bart" مستضيف أبو الحسن خان ومن زعماء الماسونية عرف ضيفه بسرعة ورآه مناسبا للورود في حلقة الماسونية. والميرزا ابو الحسن خان مثل الميرزا عسكرخان (أول ماسوني ايراني) طوى كل مراسم الماسونية بسرعة، وخلال مدة قصيرة اعتلى منصب «پاست جراند ماستر» "Past Grand Master" وتولى من قبل «جراند لوج انجلند» مهمة التعاون مع السير جور اوزلي - الذي ارتقى الى منصب رئاسة الماسونية الاقليمية في ايران - لتأسيس لوج ماسوني فيها...»[1]

ولنلق الآن نظرة على أهداف روسيا في هجومها على المناطق الحدودية الايرانية من خلال البند التاسع من الوصية المنسوبة الى «بطرس الكبير» امبراطور روسية المقتدر في النصف الاول من القرن التاسع عشر:

«يجب أن نقترب ما وسعنا من اسلامبول والهند. من يحكم هذه المناطق يحكم العالم حقيقة. من هنا لابد من إثارة حروب مستمرة مع الايرانيين، يجب إنشاء أحواض صناعة السفن على ساحل البحر الاسود واحتلال هذا البحر والبحر البلطيقي بالتدريج، فهما يشكلان منطقتين مهمتين للتقدم وتنفيذ الخطة. ولابد من العمل على الاسراع في اضمحلال ايران والسيطرة على الخليج الفارسي، واعادة الحياة قدر الامكان الى الطريق التجاري الشرقي القديم عبر سوريا حتى الهند التي هي بمثابة مستودع العالم. وحين نصل الى هذه المناطق بامكاننا أن نعرض عن ذهب بريطانيا»[2]

---

(١) رائين، مصدر مذكور/٣١٩-٣٢١.

(٢) علي اكبربينا، تاريخ سياسي و ديبلوماسي ايران (فارسي) ١/١٢.

الضعف التدريجي الذي دبّ الى جسد الحكومة الايرانية خاصة في عصر فتح علي شاه قد وفّر الفرصة لهجوم روسيا على ايران. الحروب الروسية الايرانية التي استهدفت تحقيق أهداف القياصرة التوسعية جرت في مرحلتين، واستغرقت ١١ شهرا. المرحلة الاولى: من ١٢١٨ الى ١٢٢٨هـ والمرحلة الثانية: من ١٢٤١ الى ١٢٤٣ هـ واسفرت عن انفصال ١٧ مدينة من اكبر مدن ايران الشمالية والتحاقها بروسية.

ولنقف ـ ولو قليلا ـ عند ردود الفعل تجاه هزيمة ايران أمام روسيا لانها هامة في القاء الضوء على تسلسل بحثنا هذا. ونكتفي بمثال واحد من أصحاب «الاصالة» وبمثال من «المستغربين».

الشيخ شامل

الشيخ شامل رئيس الطريقة الصوفية النقشبندية، وزعيم المجاهدين المسلمين القفقاسيين، أعلن الحرب على روسيا في أواسط القرن الثالث عشر الهجري وحارب لسنوات جيش القياصرة، لتحرير القفقاس من السيطرة الروسية. وتعاون لمدة مع «القاضي ملا» المجاهد القفقاسي المعروف، وبعد مقتل القاضي ملا قتل أيضا خلفه «حمزة بيك» (١٨٣٤م) فاصبح الشيخ شامل زعيم مجاهدي داغستان. حارب هذا الشيخ مدة ٢٥ سنة (١٨٣٤–١٨٥٩م) لتحرير بلاده ضد قادة جيش الامبراطورية الروسية، وحمّل الجيش الروسي خسائر فادحة، وأبدى مهارة قتالية فائقة. استمرار هذه الحرب وطول مدتها أرهق أنصاره وأتعبهم، فتفرق عنه أكثرهم، وكانت النتيجة أن انهزم أمام جيش عظيم وجهه اليه قيصر روسيا المعروف «الكساندر الثاني»، فاعتقل، واقتيد الى سان بطرسبورغ عند القيصر، فأمر بنفيه الى كالوغا. وسقطت كل القفقاس بيد روسيا، وأصبحت كل قبائل القفقاس خاضعة بالتدريج للسيطرة التزارية. طلب الشيخ شامل سنة ١٢٨٥هـ أن يؤذن له

بالحج، فذهب الى الحجاز وتوفي في المدينة المنورة. ولده «قاضي محمد» انخرط في خدمة الدولة العثمانية وشارك في حربها ضد روسيا سنة ١٨٧٧م. لكن مساعيه لاستثارة شعب داغستان لم تسفر عن نتيجة، وتوفي في مكة المكرمة.(١)

ميرزا فتح علي آخوندزاده

من أجل أن نكون موضوعيين في الحديث عن هذا الرجل نقتطف ما كتبه عنه واحد من أشد مؤيديه هو الدكتور فريدون آدميت في كتابه: «انديشه‌هاي ميرزا فتحعلي آخوندزاده» = أفكار... يقول: «في تيار الفكر الجديد، ميرزا فتح علي آخوندزاده (١٢٢٨-١٢٩٥) يعتبر من المبدعين، ممثل الفكر العلمي النقدي، رائد كتابة المسرحية والقصة الاوربية في الشرق، مبتكر اصلاح الخط وتغيير حروف الهجاء في العالم الاسلامي، منتقد الادب الكلاسيكي ومحطم التقاليد في كتابة التاريخ، وداعية أخذ العلم والحكمة والمدنية من الغرب، منظّر القومية الايرانية، ناقد السياسة والدين، والمؤمن بانفصال السياسة عن الدين انفصالا مطلقاً، وعدو الحكومة الاستبدادية وكل ألوان الحكم الفردي، نصير المشروطة العقلية العرفية القائمة على أساس الحقوق الطبيعية. المنادي باصلاح الدين (البروتستانتية الاسلامية) مفكر مادي بأفكار وآراء مضبوطة منسجمة ليس في نظامه الفكري خلل وتناقض. كل ما فيه أصالة المادة وسلطان العقل».

«ميرزا فتح علي نشأ في عائلة متوسطة في آذربايجان، والده تبريزي وأمه من مراغة، هو يقول عن نفسه بأنه من العنصر الفارسي. إنه من الشعب الايراني ووطنه أرض ايران.

---

(١) غلام حسين مصاحب، دائرة المعارف (فارسي) ٢/١٤٣٨، طهران، شركت سهامي كتابهاي جيبي، وانظر ايضا بريتانيكا ٢٠/٤٥٥.

... كان والده عمدة مدينة «خامنه» من أعمال تبريز حين كان «عباس ميرزا» وليا للعهد ونائبا للسلطنة في آذربايجان.

في سنة ١٢٢٧ نُحّي والده من منصب العمدة، فهاجر الى مدينة «شكي» في القفقاس حين كانت جزء من ايران. وفي سنة ١٣٢٨ يولد فتح علي في «نوقة» من ضواحي شكي، وبعد عامين تعود العائلة الى تبريز، بعد خمسة أعوام تفترق أمه عن والده بسبب خلاف بينهما، وتأخذ ابنها وهو آنئذ في السابعة من عمره وتذهب الى قرية مشكين من أعمال أردبيل عند عمها «آخوند حاج علي أصغر». ويظل فتح علي تحت رعاية آخوند علي أصغر حتى الثالثة عشرة من عمره، وعرف باسم الحاج علي أصغر اوغلي(الابن)، ولهذا حمل لقب آخوندزاده (وليد الآخوند).

في سنة ١٢٤١ آخوند علي أصغر رافق نائب السلطنة عباس ميرزا الى مدينة گنجه في القفقاس واصطحب معه ميرزا فتح علي وأمه.. كان فتح علي في الثانية والعشرين من عمره حين قدم تفليس.. فعرّفه آخوند علي أصغر على عباسقلي بيك المعروف باسم بكي خان، وهو مؤلف وعالم ومترجم الحاكم الروسي في القفقاس.. وهذاالاخير امتحن فتح علي، وعيّنه مساعد مترجم في مكتب الشؤون الادارية لحكومة القفقاس وفي ورقة استخدامه، ذكرت بداية خدمته: الاول من نوفمبر ١٨٣٤ المطابق للحادي عشر من شهر رجب ١٢٥٠ (بعد احتلال الروس لارض القفقاس)..».

ويكتب فريدون آدميت في كتابه:

«في نفس المدرسة التي درّس فيها ميرزا فتح علي اللغة التركية بتفليس توطدت صداقة بينه وبين رفيق فكره وزميله الارمني «خاجاطور ابوفيان» (١٨١٠–١٨٤٦). وابوفيان كاتب ومتحرّر ومؤسس الادب الواقعي الارمني الجديد،

وكاتب رواية «جرح ارمنستان». وبقدر ما كان ميرزا فتح علي ساخطا على المسجد كان ابو فيان ناقما على الكنيسة».[1]

«... في دفتر حياة الميرزا فتح علي وكتاب أفكاره تشاهد بوضوح أصالته الايرانية. كان في السادسة عشرة من عمره حين فصلت القفقاس بحراب الجيش الروسي عن أرض ايران. قضى خمسين عاما من عمره في القفقاس القابعة تحت حكم الاجنبي. وعمل أربعين عاما في جهاز نفس تلك الحكومة الاجنبية، لكن أصالة شخصيته كانت ثابتة دائما. كان منشدا الى إيران طوال الوقت، يتحدث باستمرار عن هموم شعب ايران والقفقاس، والروح الشعبية تشكل سدى ولحمة أفكاره وعواطفه. وهو بنفسه يقول: وإن كنت على الظاهر تركيا، فان أصلي من الفرس.. وأرجو أن يعلم الايرانيون أنني ابن الفرس ووطني ايران».[2]

ويقول فريدون آدميت في موضع آخر من كتابه:

«ميرزا فتح علي كان رجلا ذكيا موهوبا وكان يتمتع ـ كما يقول هو عن نفسه ـ بوحدة الذهن... كثير المزاح وفطن وقوي الملاحظة. وكان أحيانا يلقي الحديث الجادّ في أسلوب مازح. ومن الناحيةالنفسية كان رجلا متعادلا، وكان يتمتع بحياة هانئة مرفهة..»[3]

وقفة أطول عند أفكار آخوندزاده

من أجل أن نطّلع أكثر على أفكار واحد من روّاد التغرّب في ايران نقف أكثر عند أفكار آخوندزاده. يقول فريدون آدميت:

«فكرة إصلاح الخط وتغيير الحروف الهجائية من آثار التفاعل بين

---

(١) الكتاب المذكور /١٦. (٢) نفس المصدر /٢٢. (٣) نفس المصدر /٢٠.

المدنيتين الشرقية والغربية، وسيطرة المدنية الاوربية. رائد هذاالتفكير ومبتكر الخط الجديد في المجتمعات الاسلامية ميرزا فتح علي. ومنه سرت هذه الفكرة الى تركيا. لقد ولد هذا الوعي الاجتماعي في ايران وتركيانتيجة التفاعل بين الغرب والشرق ونتيجة التجارب العينية المكتسبة. وهذا الوعي دفع الى تعقّل أسباب الانتكاس التاريخي والانحطاط المادي، والى التفكير في سبل التقدم وتعلم العلوم والفنون الادبية...

أفكار ميرزا فتح علي تطوّرت على مرحلتين متمايزتين تطورا كليا: المرحلة الاولى، إصلاح الحروف الهجائية. الثانية، تغيير الخط.

في المرحلة الاولى: ألغى نقاط الحروف، وجعل شكل الحرف وحده مميّزا للحرف عن الآخر. وحركات الاعراب جعلها جزءا من الحروف وكتبها بازائها...

وفي المرحلة الثانية: تغيرت فكرة ميرزا فتح علي تماما، واعتقد بعدم جدوى إصلاح الحروف الهجائية. ولابدّ للخط أن يتغيّر وأن تستبدل بهذه الحروف الموجودة الحروف اللاتينية. وأن تكتب من اليسار الى اليمين. وعلى هذا الاساس قدم مشروعا جديدا يمثل تحوّلا تكامليا في أفكاره».

وبشأن بدايات فكرة إصلاح الخط، وكيف خطرت في ذهن ميرزا فتح علي يقول فريدون آدميت:

«.. لا أدري، ولاجدوى في التخمين والتقريب. أنا على اطلاع الى حدّ ما على مصدر فكرته هذه، إنها تجربة قيصر الروس (بطرس) في روسيا. يقول ميرزا فتح علي في بعض كتاباته: رأى القيصر أن خط الروس القديم يحول دون تقدّم الشعب في العلوم فتركه واستحدث خطا بالحروف اللاتينية. خالفه العوام والقساوسة وأشراف مملكته. ورفعوا عقيرتهم بالقول إننا سنفقد ديننا.. فلم يبال القيصر بحماقاتهم وجدّ في عزمه.. وبسبب تغيير الخط هذا ساروا على طريق الرقي

آنا فآنا».[1]

وحول دافع فتح علي لاصلاح الخط يقول فريدون:

«يمكننا بنظرة سطحية أن نعتبر الدافع في ذلك كراهية الكاتب للعنصر العربي وما يرتبط بالعرب. وعندنا دليل - يبدو وجيها - لتأييد ماذهبنا اليه. هو (ميرزا فتح علي) يقول في كتاباته: أحدالآثار المشؤومة لسيطرة العرب الوحوش على ثغور ايران تحميلنا خطا يجعل المستوى المتعارف من التعليم من أشق الاعمال... والآن فان المصنف يبذل غاية مساعيه لانقاذ شعبه من هذا الخط القذر الدنيء المتبقي من تلك الاقوام، ولانتشال شعبه من الظلمة والجهالة الى نور المعرفة».

«...ثمة عاملان جديدان كان لهاالاثر في ترسيخ هذه الفكرة في ذهن ميرزا فتح علي الى حد كبير: الاول مضمون رسالة «شارل ميسمر» الفرنسي مستشار «فؤاد باشا» الصدر الاعظم العثماني. فقد اقترح في هذه الرسالة تغيير الحروف الهجائية التركية والاخذ بالحروف اللاتينية... والثاني - التجربة العملية لحكومة الروس. بعد احتلال داغستان كتب ميرزا فتح علي الى ميرزا ملكم خان يقول:

حكومة الروس بعد احتلال داغستان، أي منذ سنتين، وضعت لشعوب الاوار والشيشان والجركس حروف هجاء مستقلة بخط لاتيني. وقررت هذاالخط في المدارس الجديدة التي فتحت هناك، ونقلت بعض الكتب الاسلامية الى هذاالخط. سيصبح هؤلاء أهل ثقافة وعلم. أما أهالي القفقاس وهم ما يقرب من مليونين فلايزالون يقبعون تحت كارثة الخط الاسلامي القديم عميانا جهلاء مثل الحيوانات».[2]

---

(١) نفس المصدر / ٧٤. (٢) نفس المصدر / ٧٦.

وينقل فريـدون آدميت عن ميرزا فتح علي عبارات تدل على نمطه الفكري بقـول: «في كل العـالم الغربي يـدور هـذا السـؤال: هل إن المعتقـدات الباطلة أي المعتقـدات الدينية تـؤدي الى سعـادة الشعب والوطن أم الى ذلة الشعب والوطن؟ كل فـلاسفة تلك الاقاليم متفقون على أن المعتقدات الدينية تؤدي الي ذلة الشعب والوطن في كل المجالات»[1]

وبشأن مجالس عزاء الامام الحسين عليه السلام يقول الميرزا فتح علي:

«روّج لهـذه المجـالس الديـالمة والصفويون في أيامهم، باقتضاء سياستهم. والآن فقد انتهت تلك الدواعي، ولكنك ترى هذه المجالس أينما ذهبت. تُرى، هل إن هـؤلاء النـاس وقد تراكمت المصائب عليهم، بحاجة الى من يذكرهم بمصائب القـرون الغابرة ويلهيهم عن كسبهم وعملهم؟! هذه المجالس لافائدة فيها أصلا لا لك ولا للامام».[2]

ولآخونـدزاده أشعـار كل مضامينها تنطوي على الالحاد وكراهية الاسلام وخاصة التشيع...

لماذا هذا الاستعراض لجذور التغرّب

الـذي دفعني الى هـذا التقصّي لجـذور التغرّب في إيران هو محاولة إعطاء تحليل دقيق لحركة المشروطة أو الحركة الدستورية في ايران.

لقـد تنـاول دراسة هـذه الحـركة كتاب كثيرون تناول كل واحد منهم جانبا منها. وعلى رأسهم أحمد كسروي في كتابه: «تاريخ مشروطة ايران». ويمكن تقسيم هذا الكتاب على قسمين:

---

(١) نفس المصدر /٢١٠. (٢) نفس المصدر /١٩١.

الاول ـ جمع الوثائق التاريخية المرتبطة بالحركة، وهو عمل قيم ومفيد، خاصة وهو يرتبط بفترة حساسة جدا من تاريخ ايران.

والثاني ـ تحليل هذه الوقائع واطلاق الاحكام عليها، وهي أحكام تبتعد غالبا عن الانصاف.

المعيار في كل أحكام كسروي هو الثناء على من ناصر المشروطية والهجوم المقذع على من خالفها لأي سبب من الاسباب، لاعتقاده بأن المشروطة عطاء عشرات السنين من الجهود التي بذلها المتغربون والمتجددون.

أنظر الى حكمه على واحد من كبار العلماء هو المرحوم السيد محمد كاظم اليزدي (رضوان الله تعالى عليه)، الذي كان معارضا للمشروطة غير المشروعة (غير القائمة على أساس الشرع المقدس):

«...السيد كاظم الذي كان حاذقا في خداع الناس وإثارة العامة، تحرك بشدّة، أرسل الى العشائر العربية القاطنة حول النجف وكربلاء وعلى ضفاف الفرات، وهم من الشيعة، أن يأتوا زرافات الى النجف بأسلحتهم ومعداتهم ويحوطوا السيد بالدبكات والهوسات والشعارات المعادية للمشروطة. وكانوا لايألون جهدا في إيذاء كل من يعرفون فيه تأييدا للمشروطة. وفي كل يوم يؤم فيه السيد الصحن لاداء الصلاة كان عدة آلاف من الايرانيين والعرب يصطفون للصلاة خلفه...»[1]

وهناك من راح يحلل حركة المشروطة تحليلا ماركسيا وفق القوالب النظرية التي وضعتها المادية التاريخية ومقتضيات الصراع الطبقي.[2]

---

(١) احمد كسروي تبريزي، تاريخ مشروطة ايران (فارسي)، طهران، منشورات اميركبير، ط١٢، ص٣٨٢.

(٢) مثل محاولة: محمد رضا فشاهي، از گاتها تا مشروطيت (فارسي)، طهران، منشورات غوتنبرغ، ١٣٥٤.

واقتصر بعض الباحثين على ترجمة رجال المشروطة معتقدا أن هذه التراجم تستطيع أن تسلط الضوء على وقائع ذلك الزمان من خلال ارتباط طبيعي بشخصياتها.(١)

غير أن الطريقة التي احتذاها احمد كسروي في دراسة المشروطة تسرّبت الى الكتب الدراسية الايرانية قبل انتصار الثورة الاسلامية، والى جيل من الدراسين.

واللغز الذي بقي غامضا عليّ هو التزام رجال السياسة في العهد البهلوي بهذه الطريقة الكسروية في تحليل المشروطة. يثنون - رغم حقدهم على علماء الدين - على ذلك الرهط من علماء الدين الذين أقاموا المشروطة، ويندّدون مقابل ذلك برجال الدين الذين عارضوها مثل «الشيخ فضل الله النوري»!! لماذا هذا الالتزام بالنهج الكسروي؟!

لقد كنت منذ صباي أعيش تناقضا في الرؤى تجاه المشروطة.

من جهة أقرأ في المدرسة أن المشروطة ثمرة حركة الناس والعلماء، وهذه الحركة أدت الى ظهور «فرمان» المشروطة على عهد الشاه مظفر الدين. وأهل الذوق استخرجوا مادة تاريخ هذا الفرمان بعبارة «عدل مظفر». وحدثت بعد ذلك مشاكل مرّت بسلام. من ذلك أن الشاه محمدعلي المستبد بمساعدة الحكومة الروسية قصف مجلس الشورى بالمدفع لان الاجانب (المقصود روسيا) لم يكونوا يريدون لهذه النهضة الشعبية أن تؤتي ثمارها.

كنا نقرأ أيضا: أن بعض الروحانيين السطحيين مثل الشيخ فضل الله نوري!! كانوا في صف المعارضين للمشروطة ولكن القوى المناضلة المناصرة للمشروطة واصلت كفاحها، وأجبرت الشاه محمدعلي على الفرار تحت حماية المظلة

(١) مثل كتاب: ابراهيم صفائي، رهبران مشروطة (فارسي)، طهران، ١٣٤٤.

الـروسية (وهـذا تأكيد آخر على حماية روسيا للشاه المستبد)، وأعدم الشيخ فضل الله، واتجه كل شيء الى الاستقرار.

وقـرأنـا كـذلك: إن الـدول الاجنبية ساءها أن ترى الشعب الايراني يعيش بسعـادة في ظل المشروطة. فشرعوا في التدخل فى شؤون إيران. وحركوا العشائر، وثـارت في كل نـاحية فتنة عشائرية. ومن هؤلاء المتمردين «الكلنل محمدتقي خان پسيان» و «ميرزا كوچك خان».. حتى جاء «رضا شاه»، وتحرك لقمع الفتن وقطع يد الاجانب، فنشـر الامن والرفـاه وحقق الاستقلال للبلاد، ثم جاء بعده «محمدرضا» فواصل إصلاحات والده!!

هـذا ما كنا نقرأه في الكتب الدراسية، ومن جهة أخرى كان المرحوم والدي يقول:

«كنت طفـلا في السابعة أو الثامنة من عمري حين رآني أبي وأنا أشدّ على ساعـدي عـلامة المشـروطة، فتغيّـر وجهـه حين رآني وقـال: افتح هـذه العلامة!». وجـدّي كـان مزارعا ولم يكن اقطاعيا يخشى على مصالحه من المشروطة ولم يكن مرتبطا ببلاط القاجار أو أجيرا للشاه محمدعلي. ومتى ماذكر المرحوم الشيخ فضل الله النوري كان يتأوّه من الاعماق ألما على ما نزل بالشيخ من ظلم.

كنـا نعيش هـذا التنـاقض في فهم المشـروطة حتى صـدر كتـاب «غـرب زدگی»= التغـرّب، للمـرحـوم جلال آل أحمد. وفيه يتصدى ـ لأول مرة ـ مثقف تقـدّمي، ولكن لا من النوع المتداول، للثناء على المرحوم الشيخ فضل الله، ويعلن أن صعود جسده على المشنقة علامة استيلاء التغرّب.

وثمة أسئلة كانت تطـرح نفسهـا في هـذا المجـال وتضغط على ذهني، ولا تزال مطروحة على بساط البحث:

١ ـ لمـاذا كان الشيخ فضل الله النوري وهو من المجتهدين البارزين مساندا

للمشروطة في البداية ثم أصبح بعد ذلك معارضا لها؟

٢ ـ لماذا كان انصار المشروطة يلجأون الى السفارة البريطانية متى ما ساءت الاوضاع.

٣ ـ لماذا كان يدافع عن المشروطة أفراد مشكوكون أمثال ملكم خان.

٤ ـ لماذا أصبح «ييرم خان الارمني» (عضو فرقة الداشناك) مدافعا عن المشروطة؟

٥ ـ بعد بدء النزاع بين الشاه محمدعلي وأنصار المشروطة، لماذا يسرع «الجنرال أسعد بختياري» وهو من كبار رؤساء العشائر (خان) الى العودة من اوروبا الى عشيرته، فيقود خيّالة عشيرة البختياري ويهجم على طهران للدفاع عن أنصار المشروطة.. هذه المشروطة التي شاع عنها بأنها معادية لنظام الخانات (النظام العشائري)؟

٦ ـ لماذا قاوم أنصار المشروطة إضافة كلمة «المشروعة» (وتعني الاستمداد من الشريعة الاسلامية) الى كلمة «المشروطة».

٧ ـ لماذا تطورت الاوضاع في مجلس الشورى حتى أصبح «السيد حسن المدرس» معزولا وغريبا فيه؟

٨ ـ لماذا أهمل بشكل كامل الاصل المتمم للدستور القاضي بأن يضم المجلس خمسة مجتهدين من الطراز الاول ليطابقوا بين قرارات المجلس وقوانين الشريعة الاسلامية؟

٩ ـ ماهو دور المتغربين في هذه النهضة؟

١٠ ـ لماذا كان كثير من الماسونيين شديدي الاهتمام باقامة المشروطة، وأي نفع في المشروطة للماسونية؟

١١ ـ لماذا كانت الحكومة البريطانية والمستشرقون البريطانيون مثل «ادوارد

براون» من أنصار المشروطة؟!

آثار الهزيمة أمام الروس

الاسئلة المذكورة دفعتني الى جانب غيرها من الدوافع الى السعي لدراسة المشروطة بمعزل عن الالقاءات الكسروية، وأبحث عن جذورها. ولما كانت الفكرة أساسا من واردات الغرب فلابدّ من متابعة تاريخ التغرّب في ايران. عدت الى تاريخ الصفويين وعهد الشاه طهماسب وقضايا الاخوة «شرلي»، ووقفت عند عصر «فتح علي شاه»، لأن علاقات ايران بالغرب قد اتسعت في هذا العصر، وكنا نعاني آنئذ من الحروب الايرانية ـ الروسية. وبدأت البعثات الدراسية الى أوروبا.. الى آخر مسلسل الاحداث.

نفس هزيمة ايران أمام روسيا كانت لها آثار عظيمة أهمها الهزيمة النفسية. فرجالنا رؤوا هزيمة المجاهدين الايرانيين رغم قوة عقيدتهم وجسامة تضحياتهم.. هزيمتهم أمام قوة «التكنولوجيا». فأقدموا على إيفاد الطلاب الى الغرب، وكان لهؤلاء الموفدين لدى عودتهم أثر كبير على التحولات الفكرية في ايران. فقد بلغ الانبهار بهؤلاء درجة دفعتهم الى تقليد أعمى. وأسقطت بعضهم في فخّ العمالة والتبعية وبيع المقدرات. وذكرنا نموذجا من هؤلاء حين تحدثنا عن «ابو الحسن خان الايلجي». فهذا الاجير كان يتقاضى الف روبية شهريا ثمنا لعمالته. وفي معاهدة العار المسماة «معاهدة گلستان» توسط، من أجل أن يجبر تقصيره أمام الامبراطورية، لتسليم مناطق شمال غربي ايران الى روسيا.. وكانت مواقفه من أولى محاولات تصدّي المستغربين لمعارضة الاسلام.

جماعة معارضي الاسلام كانت على نحوين: الاولى ذكية فطنة، نجدها جميعا تتغذى من مائدة سفارة واحدة. والثانية ـ غبية تردد كالببغاء ما يقوله لها

الآخرون. اكثرهم من العائدين من أوروبا وتبعهم في ذلك رهط من غيرهم.

أشرنا فيما سبق الى الظروف التي أحاطت بالحرب الايرانية الروسية. وأضيف هنا أن الاحداث بعد هذه الهزيمة تطورت حتى حوّلت هذا البلد العريق العظيم الى شبح بلد، تفتك به الصراعات الداخلية، وتتناوشه شتى الاطماع الخارجية. وكان هناك عامل واحد لاغير يصون المجتمع من الابادة والتمزّق والانفراط وهو الاسلام، وخاصة «التشيع». ولذلك كان من الطبيعي أن تتجه كل جهود الاعداء والطامعين الى اضمحلال هذا العامل.

في قضية الحرب الايرانية الروسية مرّ بنا أن فتح على شاه لم تكن له قدرة على الحرب. وروسيا كانت قد عرفت كل نقاط ضعفه. كانت التقارير تتوالى عن اعتداءات الجيش الروسي على مدن إيران، وفي الوقت ذاته يقدّم بخشكوف، ممثلا عن نيقولا قيصر الروس، عرشا من البلور هدية اليه. والميرزا ابو الحسن خان وزير الخارجية الذي يتقاضى الف روبية من البريطانيين بواسطة شركة الهند الشرقية لايرتضى الحرب مع روسيا. أي أن كل الظروف كانت مهيئة لتقديم مدن القفقاس الى ورثة بُطرس الكبير إزاء عرش نيقولا البلوري. وكان الشاه «الرجعي» راضيا بذلك وكذلك ميرزا ابو الحسن «التقدمي» المنفتح على الغرب.

كان هناك عامل واحد فقط استثار غَيرة الحكومة وهو النداء الصارخ الذي أصدره المجتهدون والفقهاء المراجع مثل سيد محمد مجاهد والملا أحمد النراقي. كان هذا النداء هو الحافز الوحيد لما أبداه الناس من حماس للجهاد في سبيل رضوان الله تعالى في هذه الحرب غير المتكافئة بين واحدة من أكبر القوى العالمية آنئذ، وحكومة واهية في مهبّ الريح.

ربّ سائل يسأل: وما جدوى حكم الجهاد؟ فالنتيجة كانت الهزيمة وانفصال ١٧ مدينة من ايران. والجواب: أن الروس كانوا يطمعون من حروبهم الوصول الى

المياه الدافئة في الخليج الفارسي، ومقاومة المجاهدين أوقفتهم عند جبال الارس. أضف الى ذلك إن المقاومة الصلبة التي أبداها المجاهدون خلال أحد عشر عاما بمساندة العلماء أوشكت أن تثمر لولا خيانة العملاء. فلو تعمقنا في تاريخ تلك الفترة لألفينا أن روسيا قد استُنزفَت قواها جراء حربها الطويلة مع ايران، وأحيطت بمشاكل ومصائب في أوربا، وكانت تبحث عن «مبرّر» لمصالحة ايران والخروج من الاراضي المحتلة. ولكن تدخل السفير البريطاني وخيانة العملاء أدت الى تسليم الاراضي المحتلة الى القوى المهاجمة، ضمن معاهدة خيانية. ومن الطريف أن الذي مثّل ايران في عقد هذه المعاهدة نفس ميرزا ابوالحسن خان وزير الخارجية، سفير ايران السابق لدى بريطانيا والماسوني ذو راتب الالف روبية، وغير الراضي عن محاربة الروس!!

على أي حال عقدت اتفاقية ضمنت المصالح المشتركة لروسيا وبريطانيا، فروسيا اقتربت من المياه الدافئة التي تصبو اليها، وبريطانيا حققت أهدافها في إضعاف الحكومة المركزية وتجزئة ايران وإزالة ما قد يشكل خطرا على شركة الهند الشرقية. وهذه الاتفاقية واجهت ردود فعل الفئات الاجتماعية المختلفة. ونحن ذكرنا آنفا نوعين من ردود الفعل، أحدهما لاصحاب «الاصالة» والآخر عن «المستغربين». وقصدنا بأصحاب الاصالة الجماهير المسلمة وقادتهم الدينيين الذين تتبلور فيهم آمال الامة وآلامها وعقائدها وجذورها الثقافية..

بعد سقوط القفقاس، نهض مسلمو تلك الديار.. هؤلاء المسلمون الذين يسميهم فتح علي آخوند زاده عميانا جهلاء.. نهضوا المقاومة استتباب التسلط الروسي، وجاهدوا بصلابة وصبر مدة ٤٩عاما(١٢٩٢–١٢٤٣هـ.ق).[1]

قيادة هذه النهضة تولاّها علماء الدين والشخصيات الاسلامية مثل القاضي

---

(١) دائرة معارف مصاحب / ١٤٣٨.

ملا، وحمزه بيك، والشيخ شامل و أمثالهم.[1]

ولم ينهض ولا واحد من هؤلاء «التقدميين» «المتجددين» ليرفع راية ضدّ الروس القياصرة الذين كانوا في أنظار الايرانيين محتلين، وفي أنظار المثقفين الروس رجعيين مستبدين.. لم ينهض واحد من هؤلاء.. بل الاسوأ من ذلك أن «آخوندزاده» أصبح موظفا أجيرا في حكومة المحتلين.. ولقد ذكرنا أنه بقي في خدمة المحتلين مدة ٤٥ عاما وكان يعيش حياة مرفهة ناعمة!!

انظر الى تقابل الصورتين:

أجزاء من أرض الوطن تتعرض لهجوم المحتلين، فتتصدى لهم جماهير مؤمنة لاتطلب شهرة ولا مكسبا عارضا، يحدوها الايمان والعشق، وتنضوي تحت لواء علماء الدين، وتقاوم لسنين بأسلحتها البسيطة أمام المحتلين وتقدم آلاف الشهداء.

وأحد هؤلاء القادة الشيخ شامل يقاوم مدة ربع قرن حتى يقع في الاسر دون أن يستسلم للذل، وفي أواخر حياته يطلب أن يذهب الى الحجاز ليختار مثواه الاخير جوار رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام. يذكّرنا الرجل بحياة الصحابة المجاهدين في صدر الاسلام، لم يهن ولم ينكل بل مضى على بصيرة من أمره يقاوم ويقاوم حتى أسر مثل أسد هصور يقع في شرك الصيد.. ثم يموت ميتة طيبة لها معان كبيرة مثل حياته المفعمة بالمعاني الجسام.

وبالمقابل لانرى في جيل أدعياء التقدمية سوى بعض الانتقادات على طريقة البَطَرِ والاسترخاء الفكري، ولم ياب زعيمهم ورائدهم أن يصبح موظفا لدى المحتلين ويعيش حياة رفاه ونعومة، ثم يصدر من مكانه الناعم وَصْفات علاج لكارثة هذه الامة تتلخص في الهجوم على مجالس الامام الحسين عليه

---

(١) بريتانيكا/مصدر مذكور.

السلام وعلى الخط العربي وعلى كل القيم المعنوية والمعتقدات الدينية لهذه الامة المقاومة المكافحة الصابرة الصامدة المضحية.. ويصبح هذا الشخص مفخرة لدى نظرائه من أمثال فريدون آدميت الذي مرّ بنا حديثه عن فتح علي آخوندزاده.

وجهة الدارسين في الغرب

حرب ايران والروس كشفت عن حقيقة مرّة، وأفهمت حكومة القاجاريين مدى تخلفهم عن قافلة العلم والرقي. وجدّ المخلصون من أمثال «ميرزا عيسى» المعروف بالميرزاالكبير وزير عباس ميرزا نائب السلطنة، في إرسال مبعوثين الى الدول المتقدمة ليتعلموا وينقلواالتطور التقني الغربي الى بلادهم.

لاول مرة توجه اثنان من الطلبة الايرانيين سنة١٣٢٦هـ ق الى بريطانيا. عباس ميرزا قال لسفير بريطانيا: «اهتموا بتدريس هذين ليعودا بالنفع عليّ وعلى أنفسهما وبلدهما». أحدهما توفي بعد عام ونصف العام من إرساله، والثاني عاد الى الوطن بعد أن درس الطب لست سنوات.

عقب ذلك توجهت بعثة من خمسة أشخاص سنة١٣٣٠هـ ق لدراسة الهندسة والطب والمدفعية والرياضيات واللغة والحكمة الطبيعية الى بريطانيا.

غادروا عن طريق روسيا الى لندن، وعادوا سنة ١٢٣٥ وتولى كل منهم مسؤولية من المسؤوليات. اثنان منهم تولى مناصب رفيعة. احدهم «ميرزا جعفر المهندس» الذي أصبح فيما بعد سفير ايران لدى الدولة العثمانية وتلقب بلقب مشيرالدولة، ثم أصبح رئيس شورى الدولة. وهو نفسه الذي كتب اليه ميزا ملكم خان رسالته باسم «كتيّب الغيب أو دفتر التنظيمات» في اصلاح الحكومة الايرانية. والآخر ميرزا محمد صالح الشيرازي وكان من أهل الفضل والكمال والذكاء

والحنكة. تعلم في بريطانيا اللغة الانجليزية والفرنسية واللاتينية والحكمة الطبيعية والتاريخ وفن الطباعة، وارتبط بالمحفل الماسوني هناك. بعد عودته أصبح مترجم الدولة الرسمي، ثم وزير طهران وكُلف بعدة مهام سياسية..

الميرزا صالح نفسه يقول عن انتمائه الى المحفل الماسوني: «كنت منذ أمد أرغب في الانتماء الى الماسونية، ولكن لم تتح لي الفرصة، حتى استطعت دخول المحفل مع المسترپارسي والمستردارسي، تناولت طعام العشاء هناك، وعدت في الساعة الحادية عشرة، ولايجوز أن أتحدث أكثر من ذلك حول هذا الموضوع»![1]

هذا الذي أرسل الى الغرب ليكون بلسما لجراح أمته ووسيلة لانقاذها من تخلفها التقني يصبح أداة انتشار الماسونية في بلده، وضمانا لاستمرار السيطرة الاستعمارية الطويلة على شعبه. كما إن غسيل الدماغ الذي طاله يؤدي به الى القول:

«ان سلسلة الملالي (ويقصد بهم علماء الدين) ماداموا يتدخلون في شؤون الدولة العثمانية فليس يؤمّل قط في تقدم هذه الدولة».

هل هذا الكلام ينطلق من فهم للداء والدواء أم من عقدة وكراهية للدين وأهله؟!

كل إنسان مسلم حادب على بلده، مهتم بمصالح شعبه يأمل أن يرى شعبه سعيدا ووطنه آمنا مستقلا في المجال السياسي والاقتصادي، وبلده ذا علاقة بالمنظومة الدولية قائمة على أساس السيادة الكاملة والاحترام المتبادل. كل إنسان مخلص يأمل أن يرى بلده قد وصل الى حدّ الاكتفاء الذاتي في حقل الزراعة والصناعة، وأن يسير في ركب العلم والمعرفة نحو الفلاح المادي والمعنوي.

---

(١) فريدون آدميت، فكر آزادي و مقدمه نهضت مشروطيت (فارسي)، طهران، منشورات سخن ١٣٤٠، ص ٢٣-٢٤. ولابد ان نذكر هنا أن حقيقة الماسونية لم تكن معروفة آنذاك كما نعرفها اليوم، وبقيت هذه الحقيقة مجهولة لسنوات طويلة. ولذلك نرى في قائمة المنتمين الى المحفل الماسوني أسماء رجال كبار انتموا في فترة من حياتهم الى الماسونية.

فهل هـذه الـوصفـات التي كتبهـا أمثـال ميـرزا فتح علي آخونـدوف، وعبـدالـرحيم طـالب أوف (سيأتي ذكـره)، وميرزا صالح الشيرازي ومن لف لفهم قـادرة على تحقيق هذه الاهداف؟ ألم تجرب تلك الوصفات في القرون الاخيرة؟ عمّ أسفرت؟

مِن آخونـدزاده حتى سعيـد نفيسي أجمع أدعيـاء التقـدمية على ضـرورة تغييـر الخط. ولـو أن الشاه آتته الفرصة لفعل ذلك. ولكن لاتأسفوا أيها السادة على سقـوط الشـاه وعدم استطاعته تغيير الحروف العربية، فلقد جربت تركيا هذاالغيير على يـد مصطفى كمـال باشا وتبدل الخط العربي الى لاتيني، فماذا جنت تركيا من هـذا التغييـر؟، وأي تطـور علمي شهدته جراء لجوئها الى الخط اللاتيني؟ انظروا الى اليابانيين.. خطهم فيـه كثر من الصعوبة وكثير من التعقيد، لكنهم لم يجروا عليه أي تغييـر، ومع ذلك حققـوا أسـرع تطور علمي وتقني في تاريخ البشرية. ولولا ما تحيط بهم من ضغـوط أميـركية لاستطـاع الين الياباني أن يحطم الدولار الاميركي أكثر فأكثر، ولاستطاعت «تويوتا» أن تشل «جنرال موتورز».(١)

لقـد أنشـد «عـارف القـزويني» أن كل مصـائب هذا البلد من «رجال الدين ورجـال القاجار»، وكلاهما أخرجا من الساحة تماما لدى استيلاء رضاخان، أسقط النظـام القاجاري وأصبحت العمامة جريمة لاتغتفر. وحلت السترة والبنطلون محل القبـاء الايـراني، والقبعة بـدل الطـاقية، والشوارب الفرنسية والهيتلرية بدل اللحية، والتنـورة بـدل الشـادر، والابتـدائية بـدل الكتاب، والجامعة بدل الحوزة العلمية... فمـاذا حصل عليـه الشعب من تقـدم؟! ألم يعمدوا الى تمديد «اتفاقية دارسي» بكل فخـر واعتـزاز؟! مع فـارق هو أن الانسان الايراني في هذاالعصر الجديد فقد حرية الاعتراض تماما، فمن ينطق بأدنى اعتراض يُسَلّ لسانُه من قَفاه.

كل أدعيـاء التقدمية في ايران ركزوا على القومية الايرانية، وعلى ايران قبل

---

(١) كتبت هذه الدراسة قبل سقوط الدولار الاخير أمام الين الياباني (المترجم).

الاسلام.. انظر الى عبارة آخوندزاده: «وإن كنت على الظاهر تركيا فاصلي فارسي..»[1] وبهذه العبارة يشير الى أن جدّه هاجر من «رشت» الى آذربايجان.

هذا التأكيد على العنصر الفارسي يسود ذهنية كل جيل المستغربين. لا أدري أهم عالمون أم جاهلون بأخطار مثل هذه الدعوة على ايران التي تضمّ أجناسا مختلفة.

الاسلام في ايران صهر الاتراك والعرب والبلوش والفرس و... في بوتقة واحدة، وجعل منهم أمة منسجمة تشترك في الآمال والآلام والعقيدة والعواطف، فلماذا ترفعون شعارا يمزّق ويفرّق ويجلب ويلات الصراع العنصري في هذا البلد؟!

الغريب أن هؤلاء القوميين الايرانيين سارعوا الى مساندة «انقلاب رضاخان» لانه رفع راية «القومية الايرانية المعادية للاسلام». فهل يبقى شك في الايدي الاستعمارية المتسترة وراء هذا التيار؟!

لقد كان الميرزا صالح يأسف على وضع الدولة العثمانية وتخلفها بسبب تدخل رجال الدين فيها. وقد تحقق حذف رجال الدين من تركيا تماما، فماذا حققته من تقدم جرّاء عملها هذا؟!

لقد كان الميرزا ابو الحسن خان الايلجي الماسوني ممثلا لايران في معاهدتي «تركمان چاي» و «گلستان» .. وهما معاهدتا الذل اللتان أعقبتا الحروب الروسية الايرانية.. وبموجبهما اقتطعت أجزاء هامة من ايران، وأصبحت روسيا صاحبة نفوذ واسع في هذا البلد المسلم.[2]

---

(١) آدميت، انديشه هاي ميرزا فتحعلي..(فارسي)/٢٢.

(٢) رائين، مصدر سابق/٢٣٢. وانظر أيضا: حسن پيرنيا وعباس اقبال آشتياني، تاريخ ايران، طهران، منشورات خيام، ١٣٤٧، ص ٧٩٧.